الجزء الثانى

الرب الحديث

(من عام ١٥٠٠ وإلى يومنا هذا)

7

العلم والدين

كثيرا ما يُقال إن العصر الحديث بدأ عام ١٤٩٢ حينما عبر كريستوفر كولومبوس الأطلسي على أمل اكتشاف طريق بحرى جديد إلى الهند وأدى به الأمر إلى «اكتشاف» القارات الأمريكية بدلا من ذلك. كان من المستحيل إنجاز تلك الرحلة البحرية بدون الاكتشافات العلمية مثل البوصلة المغناطيسية وآخر استبصارات علم الفلك. كانت شعوب أوروبا الغربية على وشك الولوج إلى عالم جديد سيؤدى بهم إلى تحكم غير مسبوق فى محيطهم، وكانت إسبانيا المسيحية فى طليعة هذا التغيير. كان راعيا كولومبوس هما العاهلان الكاثوليكيان فرديناند وايزابلا، اللذان وحّدَ زواجهما ممالك أراجون وقشتالة الأيبيرية. كانت إسبانيا فى سبيلها لأن تصبح دولة مركزية حديثة.

وكانت تلك فترة انتقالية. وبدون شك، كان كولومبوس نفسه مُطّلعا على الأفكار العلمية الحديثة التى كانت موضع نقاش حماسى بالجامعات الإسبانية، لكنه كان مازال متجذرا فى العالم الدينى القديم. كان، وهو المسيحى الورع، قد ولِد لعائلة يهودية اعتنقت المسيحية وأبقت على اهتمامها بالقابلاة والموروث الصوفى لليهودية. أيضا، كان ينظر لنفسه على أنه مقاتل صليبى ينتمى للعصور المتأخرة: كان ينوى، لدى وصوله إلى الهند، إقامة قاعدة عسكرية بهدف استرداد القدس. وعلى الرغم من أن شعوب أوروبا كانوا قد بدأوا رحلتهم إلى الحداثة، كانت الأساطير الدينية التقليدية مازالت تُضْفى المعنى على أبحاثهم العلمية العقلانية.

فى ٢ يناير ١٤٩٢ كان كولومبوس موجودا لدى استيلاء جيوش فرديناند

وإيزابلا على غرناطة، آخر معقل إسلامى فى أوربا. وفى ٣١ مارس، وقّع الملكان «مرسوم الطرد Edict of Expulsian» الذى أُرغِم بمقتضاه يهود الأندلس على الاختيار بين التعميد (اعتناق المسيحية) أو الطرد؛ وفى عام ١٤٩٩ كان على سكان إسبانيا المسلمين أن يرُغموا على نفس الاختيار. كان كثير من اليهود الإسبان مرتبطين بوطنهم فى إسبانيا لدرجة أنهم اختاروا اعتناق المسيحية، لكن ثمانين ألفاً منهم عبروا الحدود إلى البرتغال وفر خمسون ألفا آخرون إلى الإمبراطورية العثمانية الجديدة. كان للحداثة تعصباتها الخاصة بها وفيما وجد البعض العصر الحديث محرّرا وآسرا، خبره آخرون بصفته قامعاً، عدوانيا توسعيا، ومدمرا. أقام فرديناند وإيزابلا حكما سُلطويا مطلقا ضروريا لأوربا فى مطلع العصر الحديث. لم يعد

بوسعهما تقبل مؤسسات مستقلة ذات حكم ذاتى مثل نقابات الحرفيين، أو التعاونيات والجالية اليهودية، من ثم، تبعا انتصارهما فى غرناطة بإجراءات تطهير عرقى.

وكجزء من توحيد الممالك التى كانت قد ظلت مستقلة حتى آنذاك تمارس معتقداتها الخاصة، أقام فرديناند وإيزابلا محاكم التفتيش عام ١٤٨٣. كان هدفها هو فرض التطابق الأيديولوجى كقاعدة للهوية الإسبانية. وكان لهذا النموذج أن يتكرر فيما بعد فى الدول العلمانية، حيث مضى أعضاء محاكم التفتيش يتصيدون المعارضين ويجبرونهم على التخلى عن «هرطقتهم» لم تكن محاكم التفتيش الإسبانية محاولة عفا عليها الزمن للحفاظ على عالم متدين ولىٍّ وذهب؛ بل مؤسسة حداثية ابتدعها الملك والملكة للحفاظ على الوحدة القومية. كان الضحايا فى غالبيتهم من المسلمين واليهود الذين اختاروا التعميد بديلا عن الترحيل، ثم اتهموا بعد ذلك بالعودة إلى ديانتهم الأصلية. أصبح الكثيرون ممن اعتنقوا المسيحية بهذا الأسلوب كاثوليك ملتزمين، لكن الشائعات انتشرت عن حركات سرية من «الخوارج» الذين كانوا يمارسون ديانتهم القديمة سرا. تلقى أعضاء محاكم التفتيش الأوامر بتعذيب أى أحد يوقِد الشموع يوم الجمعة أو لا يأكل لحم الخنزير حتى يجبروهم على الارتداد للمسيحية والاعتراف على من ارتدوا إلى ديانتهم الأصلية. مما لا يدعو للدهشة إذن أن اغترب بعض هؤلاء «المسيحيين الجدد» عن الكاثوليكية وأصبحوا يتشككون فى الدين ذاته.

كان اليهود الذين فروا إلى البرتغال أكثر صلابة، فَضلّوا المنفى على التخلى عن عقيدتهم. فى البداية، كانوا موضع ترحيب من الملك چوا الثانى، لكن حين خلَفه على العرش الملك مانويل عام ١٤٩٥، أجبره صهراه فرديناند

وإيزابلا، على تعميد اليهود فى البرتغال وإجبارهم على اعتناق المسيحية. وصل مانويل إلى حل وسط بأن منحهم حصانة من محاكم التفتيش لمدة خمسين عاما. عُرفوا هناك باليهود الخنزيريين «خنزير Marranos» وهو لقب تبناه اليهود البرتغاليون بفخر واعتزاز. هناك، وفى ظل تلك الحصانة، وجدوا متسعا من الوقت لتنظيم تجمع يهودى سرى ناجح. ولأجيال، حاول اليهود المنعزلون ممارسة شعائرهم بقدر ما استطاعوا، لكنهم كانوا يكدحون فى ظل صعوبات ضخمة. فلم يُتح لهم، وقد انعزلوا عن يهود العالم، أى من الأدبيات اليهودية، أو المعابد، ولم يكن باستطاعتهم سوى تأدية قليل من الطقوس الرئيسية فقط. ولأنهم كانوا قد تلقوا تعليماً كاثوليكيا، كانت عقولهم مليئة بالرموز والتعاليم المسيحية، وهكذا، وكما كان محتما، فمع مرور السنين غدت عقيدتهم لا هىَ باليهودية الخالصة، أو المسيحية الحقة.

وكما سنرى لاحقا، سيصبح بعضهم أوائل أصحاب الفكر الحر والملحدين فى أوربا. غدت اليهودية الخنزيرية، وبعد أن حُرمت من الشعائر التى تجعل من التوراة حقيقة حيّة، ديانة مشوشة. كان هؤلاء اليهود قد درسوا المنطق والفيزياء والطب بالجامعات البرتغالية، لكنهم كانوا بدون خبرة فى نظم الشعائر اليهودية التكهنية. وبما أنهم اعتمدوا العقل فقط، أتى لاهوتهم لا علاقة له باليهودية التقليدية. كان إلههم هو «العلة الأولى» للكينونة جميعها، لا يتدخل مباشرة فى الشئون البشرية، ولم يكن ثمة حاجة إلى التوراة وذلك لأن قوانين الطبيعة متاحة للجميع. هذا هو الرب الذى يخلقه العقل البشرى إذا تِرك لنفسه، لكن اليهود فى الماضى كانوا قد وجدوا إله الفلاسفة خاوياً دينيا. ومثل كثير من المحدثين – ولكثير من الأسباب ذاتها– وجَد بعض اليهود الخنزيريين هذا الإله غريبا وغير مصدَّق.

أما من هاجر من اليهود إلى الإمبراطورية العثمانية، فكانت تجربتهم مختلفة تماما.. كان المنفى، ذلك الاغتراب الدينى والفيزيقى فى آن، قد أصابهم بجرح نفسى عميق؛ وبدا لهم أن كل شىء كان فى المكان الخطأ. استقر بعض اليهود الإسبان بصفد فى فلسطين حيث التقوا إسحق لوريا (١٥٣٤- ١٥٧٢) وكان يهوديا ضئيل الحجم من أصل شمال أوربى طوّر شكلا من القبالاة تعاطت مباشرة مع محنتهم. كان القباليون دائماً قد شعروا بحرية تأويل إصحاحات سفر التكوين الأولى بصفتها أليجورية (أقصوصية رمزية) محولين إياها إلى سرد باطنى عن حياة الرب الباطنية. أما لوريا، فقد ابتدع أسطورة خلق جديدة بدأت بفعل «تفريغ للذات» ولأن الله كلى الحضور، فلم يكن ثمة مساحة للعالم، مساحة لا يوجد فيها الرب. ولأنه كان لامتناهيا، فإن الرب المبهم الذى لا سبيل إلى معرفته، وإذا جاز التعبير، كمش نفسه فى عملية «انسحاب zimzum» إرادية، انكماشا ذاتيا جعل حجمه أقل. استمرت عملية الخلق على شكل سلسلة من الأحداث الكونية، انفجارات بدئية وبدايات زائفة بدت وأنها تصوير للعالم الاعتباطى الذى كان اليهود يعيشون فيه آنذاك. كانت شرارات من النور الإلهى قد سقطت فى الهاوية الخالية من الوجود الإلهى والتى نتجت عن عملية الانكماش zimzum. نُفِى كل شىء من مكانه الصحيح وهام الشخيناه Shekhinah فى أرجاء العالم فى توق للتوحد مع الذات الإلهية مرة أخرى.

لم يفهم أحد تلك القصة الغريبة حرفياً، ومثل أية أسطورة، تحدثت مجازيا عن حقيقة لازمانية، وليست تاريخية، وغدت ذات مرجعية لأنها كانت وصفا دالا لخبرة النفى، وفى نفس الوقت، كانت توضح أن مأساتهم لم تكن فريدة بل متناغمة مع قوانين الوجود الجوهرية. وبدلا من أن يكونوا منبوذين،

اعتقدوا أن اليهود لاعبون أساسيون فى العملية التى ستخلص الكون لأن بإمكان اتّباعهم التوراة بعناية أن ينهى حالة الخلل ويتسبب فى إصلاح الخلل الكونى (النيقون) وذلك بإعادة توحيد الإله لذاته، وعودة اليهود إلى الأرض الموعودة، وعودة بقية العالم إلى حالته الصحيحة. وبحلول عام ١٦٥٠ كانت القبالاة اللوريانية قد أصبحت حركة جماهيرية يهودية من بولندا وإلى إيران، وكانت اللاهوت اليهودى الأوحد آنذاك الذى لاقى مثل ذلك القبول الواسع.

كان للأسطورة أن تظل خيالا لا معنى له لولا الطقوس الخاصة التى ابتدعها لوريا. كان القباليون يمضون الليل يصلون وهم ينتحبون ويحكّون وجوههم فى التراب، ينادون على الله فى محنتهم وعزلتهم، وكانوا يسيرون لمسافات طويلة فى ريف الجليل تمثيلا لحالة الشتات والتشرد التى شعروا أنهم يعانونها. لكن، لم يكن ثمة انغماس فى الأحزان: كان يُتطلب من القباليين أن يخوضوا آلامهم وينتقلوا منها تدريجيا، بأسلوب منظم إلى أن يصلوا لقدر من البهجة. كانت الصلوات الليلية تنتهى دائماً عند الفجر بتأمل فى انتهاء اغتراب البشرية المقدس. كان القباليون يمارسون مناهج للتركيز تستدعى معها من عمق أعماق النفس الدهشة والبهجة التى لم يكونوا يدركون أنها تكمن فى أعماقهم. كان التراحم فضيلة لوريانية رئيسية، وكان ثمة عقوبات تكفيرية ذاتية قاسية على الأخطاء التى تُلحق الأذى بالآخرين: فاليهود الذين عانوا الكثير، لا يجوز لهم أن يزيدوا من الأحزان والمظالم فى العالم. بعد كارثة عام ١٤٩٢ اعتزل يهود كثيرون الفلسفة التى كانت ذات شعبية كبيرة فى إسبانيا، ووجدوا أن الأسطورة الجديدة وشعائرهم قد مكنتهم من ملامسة الجذور الأعمق لأحزانهم كى يكتشفوا مصدرا للشفاء. لكن فى العالم الجديد الذى كان قيد التشكل فى أوربا، سرعان ما أصبح هذا النوع من الأساطير الإبداعية شأنا من شئون الماضى.

خبرت بلدان أوروبية أخرى مخاض التحول الذى مرت به إسبانيا، هذا على الرغم من أنه فى تلك المرحلة المبكرة لم يدرك ذلك التحول سوى القليلين. بحلول القرن السادس عشر كانت شعوب الغرب قد ابتدأت فى خلق نمط جديد تماما وغير مسبوق من الحضارة اعتمد على تغير جذرى فى قاعدة المجتمع الاقتصادية. فبدلا من الاعتماد، مثل جميع الاقتصاد قبل الحديث، على فائض من الإنتاج الزراعى كانوا يتاجرون به كى يمولوا إنجازاتهم الثقافية، قام الاقتصاد الحديث على الاستنساخ التكنولوجى للموارد، وعلى إعادة الاستثمار الدائم لرأس المال الذى كان يمدهم بمصدر للثروة بالإمكان تجديده إلى ما لا نهاية. حُرِّر هذا الاقتصاد من كوابح المجتمعات قبل الحديثة، حيث لم يكن بمقدور الاقتصاد التوسع أبعد من نقطة معينة، وكان، فى نهاية المطاف، يتجاوز موارده التى تأخذ فى التناقص. نتيجة لهذا، كان لدى تلك المجتمعات الزراعية نزعات محافظة، لأنها ببساطة، لم يكن بوسعها أن تمضى فى استخدام دائم للبنى الأساسية، ذلك الأمر الذى غدا من سمات الحداثة. لم يكن الفكر الإبداعى يلقى تشجيعا فى المجتمعات المحافظة لأنه يمكن أن يؤدى إلى الإحباط والقلقلة الاجتماعية، ولأنه لم يكن بالإمكان، إلا نادرا، تفعيل الأفكار الجديدة، وكان من المعتاد إهمال المشاريع الجديدة التى كانت تتطلب إنفاقات مالية باهظة. من ثم، بدا أنه من الأفضل التركيز على الحفاظ على ما كان قد أُنجز بالفعل. بيد أن الشعوب الغربية كانت تدريجيا، تكتسب الثقة فى النظر إلى المستقبل لا الماضى. وفيما كانت الثقافات القديمة تعلّم الرجال والنساء أن يظلوا داخل الحدود المُعرَّفة بعناية، كان الرواد من أمثال كولومبوس يشجعونهم على المغامرة خارج حدود العالم المعروف، حيث كانوا يكتشفون أنهم لم تكتب لهم النجاة فقط، بل أيضا الازدهار.

من ثم، ومع حلول القرن السادس عشر، كان ثمة مسيرة تنشط فى أوروبا كانت فى سبيلها، تدريجيا، إلى تغيير الأسلوب الذى كان الناس يفكرون به ويخبرون العالم به. كانت الاختراعات تحدث متزامنة فى مجالات مختلفة؛ لم تبد أية واحدة منها ذات أهمية كبرى بخاصة فى وقتها، لكن أثرها التراكمى كان له أن يكون حاسما. كان المختصون فى أحد المباحث يجدون أنهم يفيدون من الاكتشافات التى تحدث فى مباحث أخرى. مثلا، اعتمد العلماء والمكتشفون على الكفاءة المتزايدة لصناع الآلات. ومع عام ١٦٠٠، كانت التغييرات والإبداعات تحدث على نطاق واسع وفى مجالات كثيرة معا بحيث بدا التقدم لا عودة عنه ومن المقرر له أن يستمر إلى ما لا نهاية.

لكن فى مطلع القرن السادس عشر، كان «التحول الغربى العظيم» مازال فى طفولته. قد يكون من الصحيح أن إسبانيا كانت أكثر البلاد تقدما فى أوروبا، لكنها لم تكن النموذج الأوحد للدولة الحديثة. فى أثناء صراعها ضد الهيمنة الإسبانية، طورت الأراضى المنخفضة (هولندا) أيديولوجيا أكثر ليبرالية لمجابهة الاستبداد الإسبانى. من ثم، غدا هناك نسختان متنافستان من الحداثة: إحداهما منفتحة ومتسامحة، والأخرى حصرية وقمعية.

وفيما تغير المجتمع كى يستوعب تلك التطورات، كان على الدين أيضا أن يتغير. لدى تلك النقطة، كان الدين مازال يهيمن على الحياة جميعها ولم يكن قد تم حصره بعد فى نطاق خاص به، لكن العلمنة كانت قد ابتدأت. كانت الدولة المركزية ضرورية لزيادة الإنتاج، ومثل فرديناند وإيزابلا، بدأ الحكام فى جميع أنحاء أوروبا فى دمج الممالك المنفصلة ليشكلوا الدول القومية الحديثة. تبنى الأمراء والملوك من أمثال هنرى السابع فى إنجلترا (١٤٥٧-١٥٠٩) وفرانسيس الأول فى فرنسا (١٤٩٤- ١٥٤٧) سياسات قصد بها

تقليص نفوذ الكنيسة وإخضاعها لغاياتهم السياسية الخاصة. كما عمل الدور المتصاعد للبنوك وشركات الأسهم والسندات، والبورصات، التى لم يكن للكنيسة أية سلطة عليها، على تآكل سلطة الكنيسة. كان لهذا التوجه الثابت الذى لم يكن ثمة سبيل لوقفه، والذى دفع بالدين إلى مكان منفصل وهامشى فى المجتمع، أن يُستشعر بأساليب مبهمة، لم يعبَّر عنها كاملة أبدا. كان ثمة حركات ثلاث حاسمة وتكوينية فى القرن السادس عشر يعزى إليها تسارع خطى العلمنة: النهضة، الإصلاح الدينى، والثورة العلمية.

لم تكن تلك مشروعات غير مرتبطة أو متنافسة، بل أثرت فى بعضها بنفس أسلوب إبداعات تلك الفترة، عكست ثلاثتها الروح الحديثة المبكرة البازغة وكانت جميعها يسودها المعتقدات والمثل الدينية.

لم يكن تَقلُّص دور الكنيسة يعنى أن الناس قد أخذوا يتحررون من سطوة العقيدة عليهم؛ بل العكس، فربما أنهم كانوا قد غدوا أكثر تدينا من نظرائهم فى العصور الوسطى. كان للدين دور فى عملية التحديث على جميع المستويات، وكان له أن يؤثر، ويتأثر، بالتصاعد اللولبى للتغير الاجتماعى والسياسى والعلمى. مثلا، كانت الأنسنة فى عصر النهضة عميقة التدين. أراد دزيدريوس إراسموس، الهولندى ذو التوجهات الإنسانية (١٤٦٦- ١٥٣٦) أن يقرأ الكتاب المقدس باللغات الأصلية، ويترجم نصوصه إلى لغة لاتينية أنيقة، وأصدر بالفعل الإنجيل باليونانية وأرفق به ترجمة لاتينية، وكان لذلك أثر هائل وأهمية كبيرة للمصلحين الدينيين. أفاد فن عصر النهضة من الرسوم التشريحية لأندرياس ڤاسيليوس (١٥١٥- ١٥٦٤)، واستغل رسامون آخرون التفسير الرياضى للفضاء: كانوا فى مجالهم الخاص يحاولون جهدهم لتشكيل رؤية على درجة من العقلانية تماثل المزاج العلمى البازغ. ساعدت

اختراعات العصر التقنية الفنانين للوصول إلى درجة كبيرة من الدقة الإمبريقية العلمية ومحاكاة الطبيعة بإتقان غير مسبوق، تأسيسا منهم على تصوير الأشياء والموضوعات بالنظر إليها من منظور واحد موضوعى ووضعها فى علاقة مع بعضها فى فضاء موحَّد. لكن، لم تكن تلك الموضوعية تعنى التخلى عن البعد المُتسامى: فقد حقق هذا «الفن العلمى» رؤية روحية مقدسة، تماما مثلما سعى العلماء المحدثون الأوائل إلى إجابة أنيقة، جمالية، عابقة عن الإلهى المقدس.

تجنب دين عصر النهضة اللاهوت المدرسى الجاف المتأخر واستوعب التأكيد المشخصن لكثير من روحانية القرن الخامس عشر. كان لورنزو ڤالا (١٤٠٥- ١٤٥٧) قد أكد على عدم جدوى المزج بين الحقيقة المقدسة و«الألاعيب الجدلية (الدياليكتيكية)» ومعها «المماحكات الميتافيزيقية». أراد ذوو التوجهات الإنسانية ديناً من النوع المشحون بالعاطفة كذاك الذى وصفه الشاعر الإيطالى فرانسيسكو پترارك (١٣٠٤- ١٣٧٤) الذى رأى أن «اللاهوت هو فى حقيقة أمره شعر، شعر عن الله» مؤثر، لا لأنه «يبرهن» على أى شىء بل لأنه يصل إلى القلب. كانت دراسة نوى التوجهات الإنسانية للعهد الجديد جزءا من محاولتهم العودة مثل أى مصلحين قبل حداثيين إلى «ينابيع» موروثهم، والتخلص من إرث العصور الوسطى من أجل إعادة اكتشاف النصوص المقدسة وآباء الكنيسة. كانت تجذبهم بخاصة روحانية بولس وأوغسطين التى تخاطب العواطف، وكانوا يكنون لهما التبجيل، لا كمرجعيات للعقيدة، بل كأفراد مثلهم، كانا قد اضطلعا بمسعى عاطفى شخصى إلى حد كبير. فقط الشخص المحرر من التنميطات الجماعية، المجتمعية والدوغماتية باستطاعته أن يُبدع بحرية، ويقوم بالتجارب الجسورة،

ويرفض المرجعية التقليدية الراسخة، ويخاطر بإمكانية الخطأ. كان بطل العصر الحديث المبكر هو المكتشف، الذى كان بإمكانه اختراق عوالم جديدة من الفكر والتجربة مستقلا، وكان على استعداد أيضا للتعاون مع الآخرين.

وعلى الرغم من وعيهم بإنجازاتهم العظيمة، فإن ذوى التوجهات الإنسانية أبقوا على حس بمحدودية العقل البشرى. كانت دراستهم للكتاب المسيحيين المبكرين والمؤلفين الإغريق والرومان الكلاسيكيين، الذين كان عالمهم جد مختلف عن عالمهم، قد جعلتهم يدركون ليس فقط تنوع الشئون البشرية، بل الكيفية التى بها تتأثر الأفكار والتوجهات – بما فيها أفكارهم وتوجهاتهم هم – بأسلوب لا يمكن إنكاره بالظروف الثقافية والتاريخية. من ثم، فلا يمكن أن تكون المعايير والأعراف الراهنة مطلقة. كانت تقارير المكتشفين الذين عادوا ومعهم حكايات عن حضارات مؤسسة على فرضيات مختلفة تماما قد وسّعت من قدرتهم على التعاطف. كان لذوى التوجهات الإنسانية ولع بفن الخطابة والكلام، وفنون الإقناع، وكانوا قد تعلموا من أرسطو أن يفحصوا السياقات الخاصة لأى نقاشات أو أطروحات؛ وأنه بدلا من التركيز على ما يقال فقط، كان من الضرورى فَهْم كيف كانت الملابسات المحلية تؤثر فى أية حقيقة. وهنا، كان هؤلاء المؤنسنون يمثلون روح الحداثة الأكثر ليبرالية.

لكنهم، وفى رفضهم الجازم لسكوت وأوكهام وعصر الأوسطيين، فقد كانوا يمثلون أيضا أحد الأوجه المتعصبة للروح الحديثة. ففيما تقدمت الفلسفة والعلم والتكنولوجيا، كان رفض الماضى القريب يبدو ضروريا لاكتشاف حقائق جديدة. شجعت التغيرات الاقتصادية والتكنولوجية الجديدة، وتحدى الإتيان بالنظام إلى الدول القومية الجديدة، وتذبذبات الأسواق البعيدة وأيضا التقارير عن «العالم الجديد» الغريب، كل هذه شجعت الناس على أن يُنحّوا

التقاليد والموروثات جانبا وأن يسعوا إلى حلول إبداعية جديدة تماما لمشكلاتهم غير المسبوقة. لكن، كان بإمكان هذا أن يؤدى أيضا إلى رفض بالجملة للأفكار والتوجهات التى بدت عتيقة. كان المؤنسنون مقتنعين بأنهم إلى جانب التقدم، وكانوا، فى هذا، على حق. قال جيونوزو مانتى الباحث الإنجيلى فى القرن الخامس عشر «إن كل ما يحيط بنا هو من عملنا، عمل الإنسان، وحينما نرى تلك الأعاجيب، ندرك أن باستطاعتنا صنع أشياء أفضل، أشياء أجمل، مُزيّنة بأسلوب أفضل، أكثر كمالا من تلك التى صنعناها حتى الآن». ولا يعنى ذلك بالضرورة أن المقاربة عصر الأوسطية للفن، والأدب والدين، كانت مضلّلة بإطلاقه؛ بل فقط أنها كانت تعكس عالما مختلفا. أما فى الشأن الدينى فقد كان للتوجه الحديث والذى يمكن فهم أسبابه لمحو الماضى تماما والبدء من جديد أثر ضار سلبى.

مثّل الإصلاحيون الدينيون العظام الثلاثة، مارتن لوثر (١٤٨٤– ١٥٤٦) أورليتش زوينجلى (١٤٨٤– ١٥٣١) وجون كالفين (١٥٠٩– ١٥٦٤) جميعهم الرفض القاطع للماضى القريب. ومِثل مؤنسنى عصر النهضة، لم يولوا اللاهوت الطبيعى عصر الأوسطى اهتماما أو وقتا، وأرادوا عقيدة مشخصنة ومباشرة بدرجة أكبر. وفى الواقع، فقد ظل زوينجلى وكالفين مؤنسنين طوال حياتهما، وكان إصلاحهما الدينى تلهمه روح عصر النهضة. فى زمن التغير الهائل ذاك، كان ثمة قدر كبير من عدم اليقين الدينى. لم يكن باستطاعة الناس أن يكونوا متدينين بالأسلوب عصر الأوسطى، لكن أين كان لهم أن يستمعوا إلى صوت المسيحية الحق؟ كان المصلحون يحاولون التعبير عن روح دينية. كان ثمة شعور قوى بها، لكنها لم تكن بعد قد تشكلت فى هيئة مفاهيم. كانت حركة الإصلاح الدينى الخاصة بهم ما هى إلا تعبير عن «التحول

الغربى العظيم». وبدلا من النظر إلى لوثر على أنه هو من حَرّض على التغيير يجب اعتباره أنه كان الناطق بتوجه معاصر.

اعتاد المؤرخون النظر إلى حركة الإصلاح الدينى بصفتها رد فعل على فساد الكنيسة، لكن يبدو وأنه كان ثمة إحياء روحانى آنذاك، بين العامة بخاصة الذين كانوا قد شعروا أنهم قد وصلوا إلى درجة من التمكن تؤهلهم لنقد مساوئ ومفاسد كانت قد ظلت تمر دونما تعليق. وفيما تغير المجتمع، غدت فجأة الأفكار والطقوس التى كانت قد ظلت قابلة للحياة دينيا قبل قدوم الحداثة غدت مقيتة، فبدلا من أن تمنح الناس حسا بإمكانيات تسامى الحياة، كانت تسبب لهم القلق. عبّر لوثر، فى خطاب خالد له، عن هذا الاغتراب عن الممارسات القديمة:

«رغم أننى عشت كراهب، حياة لا غبار عليها، فقد شعرت بأننى خاطئ، ضميرى غير مرتاح أمام الله. لم أستطع أن أصدق أننى قد أرضيته بأعمالى.. كنت راهباً صالحاً، وحافظت على الطقوس الكهنوتية بصرامة، بدرجة أنه لو استطاع راهب أن يكون مصيره الجنة لاتباعه أنظمة الدير، فقد كنت أنا هذا الراهب.. سيجزم كل رفاقى فى الدير بهذا.. وعلى الرغم من ذلك لم يمنحنى ضميرى حسا باليقين، لكننى كنت دائماً فى حالة من الشك وكنت أقول لنفسى إننى لم أفعل هذا أو ذاك كما يجب. لم أندم على أفعالى بدرجة كافية وأننى لم أذكر هذا أو ذاك فى اعترافى (للكاهن)!»

فى الماضى، كانت حياة الأديرة قد شجعت روحانية جماعية بأسلوب جوهرى. كان الرهبان ينُصتون إلى النصوص المقدسة معا أثناء الطقوس الدينية. كانت تلاوة النصوص المقدسة تأملية متمهلة، مسترخية، وكانت أسلوبا محببا للتمكن من حقائق الدين. لكن التركيز الجديد على الفرد أخضع

لوثر لهاجس أدائه الديني الخاص بدرجة تورط معها في ذاته وغرق في أوحالها، تلك الذات التي كان من المفترض له أن يتسامى عليها. لم يكن بإمكان أي من الطقوس أو الممارسات عصر الأوسطية أن تلمس ما أسماه لوثر «الحزن» الذي ملأه برعب قاس من الموت وقناعة بعجزه وقنوطه ، بالإضافة إلى ذلك، فقد كان قد عبر عن توق إلى اليقين المطلق ذلك التوق الذي سيكون سمة الدين في العصر الحديث.

وجد لوثر الخلاص في مبدأ التبرئة الإلهية من الإثم بالإيمان وحده. اعتقد أنه ليس بإمكان البشر خلاص أنفسهم (من الخطيئة) بأدائهم الأعمال الصالحة وإقامة الطقوس الدينية، فمع رسوخ إيماننا سيكسونا المسيح بصلاحه هو. من ثم، فإن أعمالنا الصالحة هي نتيجة رضا الله وليست السبب فيه. لم تكن هذه فكرة جديدة، بل كان موقفا كاثوليكيا متقبلا جدا. لكنه، وفيما كان يدرس رسالة بولس إلى أهل رومية، دهمت لوثر إحدى الآيات بقوة ساحقة وكأنما هي كشف جديد: «لأن فيه معلن بِر الله بإيمان لإيمان كما هو مكتوب أما البار فبالإيمان يحيا» (رومية ١: ١٧). قال إنها جعلته يشعر وكأنما قد وُلد من جديد، «وكأنني قد دخلت من أبواب الفردوس المفتوحة». كان من المحتمل أن تتسبب النتيجة المحددة التي استخلصها لوثر من تلك الكلمات في الدهشة لبولس نفسه الذي لم يكن قد عناها، لكن تلك النتيجة كانت تتعاطى مع الاحتياجات غير الواعية لجيل وجد الممارسات التقليدية خاوية وغير مثمرة.

تسببت التغيرات العميقة للحداثة المبكرة في أن يشعر كثيرون بأنهم قد فقدوا توجههم وضلوا الطريق. لم يكن بوسعهم، وهم يعيشون وسط الأحداث أن يروا التوجه الذي يسير فيه مجتمعهم، لكنهم خبروا تحوله البطيء بأساليب

منعزلة غير مترابطة. وفيما تهاوت فى ظل الوضع الجديد الأساطير القديمة التى كانت قد أمدت أسلافهم بالحس بتماسك البنية والأهمية، بدا وأن كثيرين قد خبروا الحس بالعجز الذى عانى منه لوثر. كان زوينجلى وكالڤين أيضا، وقبل أن يعتنقا رؤية دينية جديدة، قد خبرا عجزا مُعوقا فى مواجهة محن الوجود البشرى، واقتنعا بأن ليس بإمكانهما الإسهام بشىء فى خلاصهما الشخصى. ونتيجة لهذا، أكد جميع الإصلاحيين الدينيين على سلطة الله العليا المهيمنة غير المشروطة، تلك العقيدة التى ستكون سمة الرب الحديث، وأيضا ستساعد على تشكيل الثورة العلمية.

كان التأكيد على سلطة الله الكلية وقدرته يعنى أن الله وحده هو الذى يستطيع تغيير مجرى الأحداث، من ثم، فإن على البشر العاجزين جوهريا، الاعتماد على قدرته غير المشروطة. حينما أصيب زوينجلى فى صباه بالطاعون الذى قضى على ٢٥٪ من سكان زيورخ، عرف أنه ليس بوسعه فعل شىء لينقذ نفسه. دعا الله قائلاً: «افعل ما شئت فأنا لا يعوزنى شىء، فما أنا إلا متلقٍّ لرسالتك: إما تصلحنى أو تهلكنى». أيضا، كان كالڤين فى شبابه قد شعر أنه واقع فى قبضة الكنيسة المؤسساتية، وأنه ليس بوسعه، تحرير نفسه من ذلك بل وأنه غير راغب، ويبدو أن المسألة اقتضت تدخلاً إلهيا تسبب فى حدوث نقلة له: «وأخيرا، حول الله مسارى إلى اتجاه مختلف من خلال لجام قدرته غير المرئى.. من خلال تحول مفاجئ إلى الطاعة، استأنس عقلا متصلبا بدرجة تفوق عمره».

حينما تحدث لوثر عن الإيمان الذى بإمكانه أن يخلص الرجال والنساء من الإثم لم يكن يعنى، بطبيعة الحال «العقيدة» بمعنانا الحديث، بل فعل ثقة تامة فى قدرة الله المطلقة. أوضح فى إحدى وعظاته أن الإيمان لا يتطلب

المعلومات، المعرفة، واليقين، بل الاستسلام الحر غير المقيد لجوده الذى لا نشعر به، ولم نختبره ولا سبيل لنا إلى معرفته، ويتطلب أيضا رهانا عليه يأتى معه بالبهجة. لم يكن لوثر يبالى باللاهوتى الزائف، الذى «ينظر إلى الأمور غير المرئية لله، وكأنما يمكننا رؤيتها والإحساس بها فى الأشياء التى حدثت بالفعل». و كأبعد ما يكون عن أن يأتى معه بالرؤية الواضحة فإن الإيمان يأتى بنوع «من الظلمة لا ترى شيئاً». لم يكن، وقد اغترب عن لاهوت سكوت، وأوكهام يتخيل للحظة واحدة، أن بإمكان تفحص النظام الكونى، أو التفكير المنطقى الطبيعى أن يأتينا بمعرفة حقة عن الله. لم ير أن محاولة إثبات وجود الله غير مجد فقط، بل بإمكانه أن يمثل خطرا، لأن بإمكان إفراط التكهن حول قدرة الله التى لا تقتصر على حكم الكون أن يتسبب فى إصابة البشر بحال من اليأس القانط والرعب. لكن نزع القداسة المتعمد هذا عن النظام الكونى، ورغم دوافعه الدينية، كانت فكرة أدت إلى العلمنة وشجعت العلماء على مقاربة العالم بصفته مستقلا عما هو إلهى مقدس.

أيضا، أدى اعتماد لوثر على «الكتاب المقدس وحده» إلى لاهوت يقوم على الألفاظ أكثر من أى وقت مضى. يُعزى نجاح الإصلاحيين الدينيين بنسبة كبيرة إلى اختراع آلة الطباعة التى لم تعمل فقط على ترويج الأفكار الجديدة، بل أدت أيضا إلى تغيير علاقة الناس بالنص. من ثم، كان للكلمة أن تحل محل الصورة والأيقونة فى تفكير الناس، وكان للاهوت أن يعتمد على الرطانة والإسهاب. أيضا، تدنّت منزلة الطقوس، ورأى الإصلاحيون أن أفعال التقوى الطقوسية التى يُقصد بها اكتساب الحسنات كانت فى أفضل الأحوال دونما جدوى وفى أسوئها أفعال كفر. أبقت الكنائس اللوثرية على الأردية الكهنوتية المعتادة، وكذلك اللوحات، ولوحات المذابح، والمراسم؛ بقيت موسيقى الأورغن

والتراتيل، وكان للإصلاح الدينى الألمانى أن يلهم تقليدا جديدا من الموسيقى الكنسية ستصل أوجها فى أعمال چيه. إس. باخ (١٦٨٥- ١٧٥٠)، التى كان لها أن تضفى بعدا متساميا على ألفاظ اللغة الدارجة الواقعية المملة. أما فى التعاليم الكالڤينية، فقد اختفت الصور والتماثيل، وتم تبسيط الموسيقى الكنسية بإفراط، والتخلى عن الشعائر وتفضيل العبادة المرتجلة عليها.

ساعدت الطباعة على علمنة علاقة القارئ بالحقيقة التى كان يحاول الوصول إليها واكتسابها. فى الماضى، كانت الكنيسة - بدرجة ما - قد استطاعت الإشراف على تدفق المعلومات والأفكار، لكن تكاثر الكتب والكتيبات بغزارة بعد منتصف القرن السادس عشر جعل هذه الرقابة أكثر صعوبة بكثير. وفيما بدأ الكتاب المطبوع يحل محل نهج التواصل الشفاهى، أصبحت المعلومات المستقاة من الكتب غير مشخصنة، بل وربما أنها غدت أكثر ثباتا وأقل مرونة مما كانت عليه فى الماضى، حينما كانت الحقيقة تتطور من خلال علاقة دينامية بين الأستاذ والطالب. كانت الصفحة المطبوعة ذاتها صورة للدقة والضبط، أحد أعراض النظرة العقلية للروح التجارية الحديثة المبكرة. كان المخترعون، التجار، والعلماء يكتشفون أهمية الدقة؛ وكانت معارفهم متوجهة لهذا العالم وللنتائج الملموسة العملية ومكيفة وفقا له. كانت الكفاءة فى سبيلها لأن تصبح كلمة السر لدى الحداثة. لم يعد من المرغوب فيه محاولة الوصول إلى حقائق ضبابية؛ كان على الأشياء أن تعمل بفعالية على أرض الواقع. وفيما أجبر الناس على أن تدخل أفهامهم فى صراع مع التحديات غير العادية التى كانت تحدث متزامنة على جبهات عديدة ومحاولة الإلمام بها، غدت المقاربة المنهجية البرجماتية للمعرفة ضرورية.

كان من المحتم أن يؤثر هذا على الأسلوب الذى كان الناس يفكرون به فى

الدين. فى المجتمعات قبل الحديثة، كان الرجال والنساء يخبرون المقدس فى الموضوعات الأرضية، بحيث كان من المتعذر الفصل بين الرمز والمقدس. مثلا، كان الخبز والنبيذ فى طقس القربان المقدس متماهيين مع الحقيقة المتسامية التى كانا يجذبان الانتباه إليها. والآن، أعلن الإصلاحيون أن القربان كان مجرد «رمز» وأن القداس ليس إعادة تمثيل رمزية لصلب المسيح بل فقط طقساً تذكاريا. بدأوا يتحدثون عن أساطير الدين وكأنما هى مجرد أقوال متواترة؛ ويوحى السرور الذى تلقف به الناس هذه التعاليم الجديدة بأن كثيرا من مسيحيى أوروبا كانوا فى سبيلهم للتخلى عن عادات التفكير القديمة.

أضفت المعارك اللاهوتية بين روما والإصلاحيين، وفيما بعد، بين الإصلاحيين أنفسهم أهمية على ضرورة دقة صياغة المبادئ المبهمة. استخدم الإصلاحيون البروتستانت وأعداؤهم الكاثوليك، جميعهم المطبعة، والمجمعات الكنسية، والمستشارين من اللاهوتيين لاستخلاص التمايزات الدوغماتية الدقيقة فيما كانوا يناضلون من أجل التعبير عن اختلافاتهم عن بعضهم. وابتداء من عشرينيات القرن السادس عشر، بدأ الإصلاحيون فى إصدار كتب «خلاصات دينية» «catechisms» وهى عبارة عن حوارات على شكل أسئلة نمطية وإجابات كى يضمنوا أن يتقبل أتباعهم تأويلاتهم للعقيدة المسيحية وقانونها الإيمانى ويستوعبوها. وتدريجيا، كان الإيمان الصحيح فى سبيله لأن يصبح شأن تقبل التعليمات «الصحيحة». أدى اعتماد البروتستانت على «الكتاب المقدس وحده» إلى الاستغناء عن الفكرة الكاثوليكية بشأن «الموروثات» والتى كانت ترى أن كل جيل يُعمِّق فهمه للنص المقدس من خلال «بريكولاج» أو الوصول إلى تأويل جديد باستخدام المادة القديمة فى عملية تراكمية. لكن البروتستانت، وبدلا من محاولة قراءة ما وراء اللغة، كانوا

يشجّعون على التركيز على كلمة الله المطبوعة الأصلية، محدّدة المعنى الذى من المفترض ألا يتغير. وبدلا من قراءة النص المقدس وسط مشهد جماعى، كانوا يبذلون الجهد، كل بمعزل عن الآخر، لفهم غموضه وتدريجيا، بدأ يظهر فى العالم المسيحى الغربى ويتناغم مع الروح التجارية العلمية الجديدة، مفهوم «حديث» مُميّز عن الحقيقة الدينية بصفتها منطقية، مباشرة وموضوعية.

وفيما مضت حركة الإصلاح الدينى قدما، بدأت البروتستانتية تتشعب إلى عدد مُربك من الطوائف، لكل منها تحيزاتها العقائدية، وتأويلها الخاص للإنجيل. كانت كل طائفة منها على قناعة أنها وحدها تملك الحقيقة القصرية. أضحى هناك ضجيج من الآراء الدينية فى أوربا. وفيما اندلعت المعارك بين لوثر والسلطات الكاثوليكية، انضم إليه رجال الدين المثقفون فى مواجهة الكنيسة، أو صادقوا على آرائه بأسلوب صاخب. بدأ الوعاظ يعبرون عن اختلافاتهم مع الكنيسة علنا، وشجعوا العامة على الاشتراك فى الجدل. رأى زوينجلى أن على العامة أن يشعروا أن من حقهم مساءلة التعاليم الرسمية وأنه لا ينبغى لهم انتظار قرارات المجمعات الكنسية.. بدأ «الكالفنيون» فى التعبير عن تأويلاتهم الخاصة للتعاليم الدينية كى يميزوا أنفسهم عن «اللوثريين». وكما هو محتم، كان لذلك الانغماس فى الجدالات الحادة حول العقائد أن يؤثر فى المفهوم التقليدى عن «العقيدة» ويدفع بالأرثوذكسية الفكرية إلى المقدمة.

وجد الكاثوليك أيضا أنه من الضرورى إعادة صياغة عقيدتهم، لكنهم حافظوا ولدرجة كبيرة على المفهوم القديم للدين بصفته ممارسة.. أخذ الإسبان، الذين كانوا مازالوا فى طليعة مسيرة التحديث، مركز القيادة فى الإصلاح الدينى الكاثوليكى الذى كان نتيجة مبادرة من قبل «مجمع ترنت

الكنسى ١٥٤٥- ١٥٦٣» الذى جعل الكنيسة كيانا أكثر مركزية على غرار الحكم الملكى المطلق. دعم المجمع سلطة البابا وتراتبية هيئة الكهنوت، وأصدر كتب «خلاصة دينية catechism» لضمان التماثل العقائدى، وارتفاع مستوى تعليم رجال الدين، وعقلنة الممارسات الطقوسية والعبادات، والتخلص من رجال الدين الفاسدين أو غير المؤثرين. أعدّ مجمع ترنت برامج تعليمية وتنظيمات إبراشية لضمان انتشار الأسلوب الثقافى الجديد بين العامة. وعلى الرغم من أن الآباء بالمجمع خطوا خطوات واسعة لفرض الأرثوذكسية (الإجماع) العقائدية، فقد كان اهتمامهم الأول هو تعزيز الالتزام بطقوس العبادة بانتظام لتمكين العامة من تحويل المراسم الظاهرية القديمة إلى ورع باطنى حق. كان الكاثوليك، بلا شك، يتحولون باتجاه المفهوم الجديد لـ «الاعتقاد»، لكنهم لن يصلوا أبدا إلى حد مماهاة «العقيدة» مع حرفية المبادئ الدينية مثل البروتستانت.

قام مصلحون إسبان آخرون، مثل تريزا الأفيلية، وجون الصليبى، بتحديث نظم الرهبنة فى محاولة لاقتلاع المراسم المشبوهة والخزعبلات وجعل المسعى الدينى أكثر منهجية وأقل اعتمادا على نزوات المرشدين غير الكفء. رأو أن على متصوفة العصر الحديث أن يعرفوا ما بالإمكان توقعه ويتعلموا التعاطى مع مآزق الحياة الباطنية وأخطارها، والاقتصاد فى طاقاتهم الروحانية واستخدامها بأسلوب مثمر. جسّد الجندى السابق إغناطيوس دوليولا (١٤٩١- ١٥٥٦)، ومؤسس «الرهبانية اليسوعية»، تماما كفاءة الغرب فى بداية العصر الحديث وفاعليته. أمد كتابه «الرياضيات الروحية» المتعبدين بفرصة لعزلة تدوم ثلاثين يوما للدراسة والتأمل المنهجى تُستغلّ فيه كل دقيقة - نوع من منهج دراسى مكثف قصير الأمد فى التصوف، قصد به جعل كل

جزويتي قوة دينامية فاعلة فى الحياة. ومثل المكتشفين الجغرافيين من شبه جزيرة إيبريا، بُعث بالمبشرين الجزويت إلى جميع أنحاء العالم: فرانسيس إكزافيير (١٥٠٦- ١٥٥٢) إلى اليابان، روبرت دى نوبيلى (١٥٧٧- ١٦٥٦) إلى الهند وماتيو ريشى (١٥٥٢- ١٦١٠) إلى الصين.

خضعت الكنيسة الكاثوليكية الإصلاحية والطوائف البروتستانتية الجديدة جميعها لثورة الحداثة على التقاليد والمعتقدات القديمة، ذلك التوجه الذى مضى يشعر دائماً بالإجبار على تحطيم ما كان قد نُسخ بشكل شخصى. عادلت بشاعات محاكم التفتيش الإنجازات الإيجابية للإصلاح الكاثوليكى. واستخدم البروتستانت حظر العهد القديم للصور فرصة تفوضهم بتحطيم التماثيل والجداريات وحظرها. احتدم خطاب لوثر الغاضب ضد البابا، وضد الأتراك (المسلمين) واليهود والنساء والفلاحين المتمردين. ربما تطلب الإصلاحيون البروتستانت أن يكون للمسيحيين حرية تفسير الإنجيل وفق رغبتهم، لكن، لم يكن ثمة تسامح مع أى أحد يعارض تعليماتهم هم. اعتقد لوثر بوجوب حرق جميع كتب «الهرطقة» وكان كالڤين وزوينجلى على استعداد لإعدام المعارضين. ورغم مظاهر التدين الزخمة تلك، فإن الانقسامات التى تسبب فيها الإصلاح البروتستانتى ساعدت أيضا على المسارعة بعملية العلمنة وتنامى المشاعر والتوجهات القومية. كان على الأمراء، ومن أجل الحفاظ على النظام، أن يفصلوا أنفسهم عن الاضطرابات التى ولدتها الكنائس والطوائف المتخاصمة المتنازعة، والتى كانت سلطتها السياسية قد تراجعت تبعا لذلك. وفيما كانت الأمم الوليدة تصارع من أجل الاستقلال عن روما، أقامت هويات مميزة متمايزة، واختارت تبنى إما الكاثوليكية أو البروتستانتية، أما المستقلون أو المنشقون (عن الكنيسة القومية) فكانوا يضطهدون غالبا، بصفتهم خصوما سياسيين منشقين، وخونة أيضا.

من ثم، وفيما كان الغرب يلج العصر الحديث، انقسم بعنف بين الدوغماتية المتعصبة غالبا من جهة، والليبرالية الأكثر تواضعا التى كانت قد أدركت حدود المعرفة من جهة أخرى. استكشفت مسرحيات شكسبير (١٥٦٤- ١٦١٦) إمكانيات الشخصية البشرية المتنوعة تنوعا كبيرا. كان شكسبير يشارك مدرك عصر النهضة عن أهمية السياق. فالأفكار، والأعراف، والسلوكيات تتمازج بأسلوب لا مناص منه مع مجموعات معينة من الظروف والملابسات، من ثم، فمن المستحيل الحكم عليها من وجهة نظر موضوعية نظرية محضة. كما أن الشئون البشرية لا تحفزها الاعتبارات العقلانية بشكل رئيسى. فالأفراد، دائماً، ما يقعون فريسة، دونما إدراك منهم، لنوازع غير واعية أو عاطفية غير برجماتية أو فاعلة، بل أحيانا تعمل ضد مصالحهم الشخصية. صوّرت شخصية هاملت الوعى المعذب لبطل يتماهى معه الجميع، بقدر، وهو يرتد دونما توقف، وبلا جدوى حول نفسه، غير مستطيع فهم دوافعه، أو الوصول إلى أية درجة من اليقين بشأن الأمور العملية الأكثر إلحاحا. أما فى مسرحية «عطيل» فقد مثّل «خبث وشر إياجو غير المبررين» ظاهريا محاجة قوية ضد الأفكار التبسيطية عن الخير والشر. جعل شكسبير جماهيره يدركون أن البشر غامضون بالنسبة لأنفسهم وللآخرين، وأن محاولة التأثير فيهم ليتصرفوا بأسلوب معين، أو أى توقّع لأن يفعلوا ذلك، هى محاولة، كارثية، سلبية ومعوقة.

عبر ميشيل دو مونتنيه (١٥٣٣- ١٥٩٢) كاتب المقالات الفرنسى، بأسلوبه الخاص المميز، عن روح مماثلة، وكان يتشكك من أية محاولة بشرية للوصول إلى الحقيقة المطلقة. فى عمله المعنون «دفاعات عن ريموند سبوند» الذى كتبه بسخرية لا تكاد تخفى، ولحد كبير لإرضاء والده. أبدى مونتنيه عجبه من ثقة

سبوند الفكرية. كان سبوند فيلسوف القرن السادس عشر الإسباني. قد رأى جازما أننا باستطاعتنا استخلاص جميع المعلومات التى نحتاج إليها عن الله، والخلاص، والحياة البشرية من خلال دراسة العالم الطبيعى. أما مونتنيه، فكان يرى أن العقل كان على درجة من العماء والعرج بحيث إنه ليس ثمة ما هو يقينى أو حتى محتمل، وأنه بالإمكان إغراء الناس على تصديق أى شىء تقريبا إذا كان النقاش جذابا بما يكفى. لكنه كان أبعد ما يكون عن الإحباط بسبب عدم وجود سبيل إلى المعرفة اليقينية، بل على العكس، تمكن من التعايش برضاء تام مع ذلك التقدير المتواضع للعقل البشرى، وبدا أنه وجد تنوع وتعقيد الحياة الحديثة المبكرة أمرا ممتعا. ومثل مفكرى عصر النهضة من ذوى التوجه الإنسانى، لم يكن لديه رغبة فى إصدار أحكام على عالمٍ كان يغدو، يوميا، أكثر صعوبة من حيث تقييمه. كان يعتبر نفسه كاثوليكيا بارا - لكنه حكم على محاولات فرض أى نوع من الإجماع العقائدى، وفى ضوء المكتشفات الجديدة التى أوضحت باستمرار حدود الفهم البشرى، حكم عليها بأنها صلفة، عديمة الجدوى ومضللة.

من الخطأ تخيل أن جميع السكان استوعبوا الأفكار الجديدة على الفور. فالمحتمل هو أن الغالبية الساحقة شعروا بالحيرة من تشظى العالم المسيحى فجأة دونما فهم واضح لما كان يجرى. ولمدة مائتى عام، على الأقل، ظلت عادات التفكير القديمة مثابرة، وأحيانا كانت تتصادم بتوجس مع القيم الجديدة، حتى أن باستطاعتنا أن نرى ذلك فى مجال الاكتشافات العلمية. فى عام ١٥٣٠ أكمل نيكولاوس كوبرنيكوس (١٤٧٣- ١٥٤٣)، وكان كاهنا من أصل بولندى بكثدرائية فراونبورج فى بروسيا، رسالته التى رأى فيها أن الشمس هى مركز النظام الكونى. وكرجل نمطى من عصر النهضة، كان

كوبرنيكوس قد درس الرياضيات، والبصريات والرسم المنظورى فى كراكاو، والقانون الكهنوتى فى بولونيا، والطب فى بدوا، وألقى محاضرات عن علم الفلك فى روما. وفى فراونبورج، حيث عمل فى أوقات مختلفة كإدارى بالكنيسة، وعُمدة، وحاكم عسكرى، وقاضٍ وطبيب، واصل دراسته للنجوم. كان كوبرنيكوس يعلم أن غالبية الناس ستجد فكرة عالم مركزه الشمس إما من المستحيل فهمها، أو قبولها، لذا لم ينشر رسالته، بل قام بتوزيع مسودتها سرا. وبالرغم من ذلك، سرعان ما قُرئت على نطاق واسع فى البلدان الكاثوليكية والبروتستانتية وأثارت كثيرا من الاهتمام.

كان الأوروبيون، منذ القرن الثانى عشر، قد تبنوا علم كون مؤسسا على الفيزياء الأرسطية، روّج له بطليموس (٩٠- ١٦٨) عالم الفلك المصرى، الذى رأى أن الأرض ثابتة فى مركز الكون، يُغلفها مثل البصلة، ثمانية أغلفة كروية تتكون من مادة غير مرئية تسمى الأثير. اعتقد أن تلك الكُرات (الكواكب) تدور بأسلوب موحد حول الأرض، وكان داخل كل غلاف كروى أثيرى، أحد الأجرام السماوية السبعة: القمر، عطارد، الزهرة، الشمس، المريخ، المشترى، وزحل، وكانت النجوم الثابتة تحتل الكرة (الكوكب) الثامنة لدى الحافة القصية للكون وتمنح الاستقرار للكل. كان النظام البطلمى أكثر الأوصاف دقة للمعطيات التى تراكمت فى العالم القديم حيث كانت تقنيات الملاحظة محدودة وغير كفء.

وجد عصر الأوسطيين ذلك النظام مُرضياً أخلاقيا، إذ ربما كانت الأرض مركز الكون، لكنها تحتل الموقع الأدنى فى الخليقة. كل شىء على الأرض يتغير وإلى زوال. لكن فيما يتحرك المرء خارج نطاق القمر الذى يكبر حجمه ثم يزوى، وإلى الشمس الأكثر استقرارا، ثم إلى النجوم الثابتة يغدو كل شىء

أكثر مدعاة للثقة، ثم بعد الكوكب الثامن يوجد عالم السماء الأزلى. لكن على الرغم من أن نظام بطليموس كان مبهجا على المستوى الروحى، إلا أنه كان مليئا بالمثالب والفجوات العلمية. ونظرا لأنه كان ينظر للدائرة على أنها رمز الكمال، فقد افترض بداهة أن الكواكب كانت تتحرك فى مدارات دائرية كاملة. لكن الملاحظين كانوا قد تبينوا أن بعض الكواكب كانت تبدو وأنها تتحرك بأسلوب غير منتظم وكانت تبدو أكثر بريقا أحيانا ثم يشحب بريقها. حاول بطليموس تفسير عدم الانتظام هذا من خلال آلية رياضية رأت أن الكواكب تتحرك فى دوائر صغيرة تلف حول محيط دائرة أكبر، وتدور حول نقطة مركزية تشكل ذاتها مسارا دائريا كاملا حول الأرض، موضحا أنه حينما يُنظر إلى مركز الدائرة الصغيرة من الأرض، تبدو الكواكب وأنها تتحرك بغير انتظام، لكن لو أمكن ملاحظتها من نقطة بعيدة عن المركز، سنراها تتحرك بأسلوب منتظم تماما.

قلب كوبرنيكوس النظام البطلمى بأكمله رأسا على عقب. وعلى الرغم من أن أطروحته أدت إلى حدوث ثورة فكرية، بيد أنه شخصيا، أبقى على موطئ قدم له فى العالم الأسطورى القديم، حيث وجد أنه من المستحيل التخلى عن فكرة الكواكب السماوية أو عن رمزية مدارات الكواكب الدائرية.

وكرجل إدارة كَنَسى، تفحص كوبرنيكوس السماء ليحدد أيام الأعياد الدينية، لكنه كرجل من عصر النهضة، تسببت ثغرات علم الكون البطلمى له فى القلق. كيف تأتى للخالق أن يأت بنظام كونى على هذا القدر من عدم الانتظام، غير المحبب جماليا؟ وحينما عاد إلى العصور القديمة الكلاسيكية، وجد أن أريستارخوس الساموى كان قد اقترح أن الكواكب تدور حول الشمس وأن الأرض تدور حول محورها الخاص، كما اكتشف أن

الفيثاغورثيين كانوا قد اعتقدوا أن الرياضيات، لا الفيزياء، هى مفتاح فهم العالم الطبيعى، وأن فيلولاوس، أحد تلامذة فيثاغورث، اعتقد أن الأرض، والكواكب والشمس، تدور جميعها، حول ناركونية مركزية.

لكن، لم يصل أحد من أتباع المذهب الطبيعى اليونانى إلى التضمينات الرياضية لنظرياتهم. مضى كوبرنيكوس يفعل ذلك وأتى بفرضية جديدة جذريا. لو أننا، من أجل النقاش، افترضنا أن الأرض تكمل دورة يومية حول محورها الخاص، وأيضا أخرى سنوية حول الشمس سيمكننا تعليل جميع الظواهر السماوية بنفس درجة دقة بطليموس، لكن بأسلوب أكثر سلاسة وأناقة. يمكن تفسير الدوران اليومى للأجسام السماوية وحركة الشمس السنوية التى «اعتقدنا» أننا نلاحظها بدوران الأرض اليومى حول محورها ومدارها السنوى حول الشمس. إذن، فالحركات السماوية التى نلاحظها هى مجرد إسقاطات لحركة الأرض فى الاتجاه المعاكس.

لقيت نظرية كوبرنيكوس نقدا قاسيا شاملا ليس لأنه لم يكن باستطاعته إثباتها، بل لأنها كانت تناقض الأسس المبدئية للفيزياء الأرسطية. وعلى الرغم من أن الرياضيات نجحت تماما فى إثباتها، لكن – وفقا للتراتبية الأكاديمية التقليدية – كان من المفترض أن تذعن الرياضيات للفيزياء بصفتها العلم الأسمى. لم يكن من المستغرب أن رأى غالبية الناس فكرة كون مركزه الشمس غير مصدقة. فقد كانت تناقض التفسير العلمى المعيارى، بل وأيضا الحكمة الفطرية الأساسية. كان كوبرنيكوس يطلب من زملائه أن يصدقوا أن الأرض التى تبدو ثابتة، كانت فى واقع الأمر تتحرك بسرعة مهولة، وأن الكواكب والنجوم تبدو فقط أنها تتحرك نتيجة لإسقاط خاطئ. تطلبت النظرية الكوبرنيكية من الناس عدم الثقة فى أدلة حواسهم، وأن يقبلوا على أساس من الثقة العمياء نظريات مضادة للتكهنات أتى بها عالم رياضيات غريب الأطوار.

فى البداية، كان ثمة قليل فقط من الاعتراضات الدينية المحددة. فعلى الرغم من أن بعض النصوص الإنجيلية كانت تضمر أن الشمس تتحرك فى السماوات والأرض راسية، فلم يكن الكاثوليك مجبرين على تفسيرها حرفياً. كانوا مازالوا يتبعون مبدأ تطويع النصوص الذى قال به أوغسطين، والذى كان مؤداه أنه ينبغى إعادة تأويل النص الإنجيلى إذا تعارض مع العلم. كان كوبرنيكوس قد عرض فرضيته، فى البداية، على أنها نوع من الخيال بالأسلوب التقليدى، وحينما قرأ أطروحته فى الڤاتيكان عام ١٥٣٤، منحها البابا مصادقة حذرة. وحينما تم نشرها فى النهاية فى عام ١٥٤٣، كان كوبرنيكوس يحتضر، واضطلع مُرَاجعه أندريا أوسياند (١٤٩٨- ١٥٥٢) متطوعا ليكتب تمهيداً لها كى يحمى الرجل المحتضر من التحرشات والمضايقات. كتب قائلاً: ليس بإمكان علم الفلك إثبات أى شىء من فرضياته، من ثم علينا الاعتماد على التنزيل المقدس من أجل الحصول على معلومات موثوقة عن النظام الكونى».

لم يكن كوبرنيكوس أو حفنة الرجال الآخرين الذين خامرتهم فكرة كون مركزه الشمس يعتبرون أنفسهم متمردين على الدين – قيل إن لوثر علّق على هذا بضيق فى «حديث المائدة» قائلاً: إن كوبرنيكوس «أحمق» يريد «أن يقلب علم الفلك رأسا على عقب». لكن لوثر بدا وأن اهتمامه كان بالأرثوذكسية (الإجماع) العلمية التقليدية أكثر منه بالتضمينات الدينية لفرضية كوبرنيكوس. أما كالڤين فلم يذكر كوبرنيكوس أبدا، بل إنه تمسك بمبدأ أوغسطين عن تطويع تفسير النص المقدس كى يلائم الاكتشافات العلمية. لم يكن من المفاجئ له أن يسمع أن الوصف الإنجيلى للنظام الكونى يختلف عن أحدث اكتشافات الفلاسفة رفيعى التعليم. مثلا، كان موسى قد وصف

الشمس والقمر، وفقا لما جاء بسفر التكوين، بصفتهما أكبر الأجرام السماوية حجما، فى حين يزعم علماء الفلك المحدثون أن زحل يفوقهما من حيث الحجم: «وهنا يكمن الاختلاف. لقد كان موسى يكتب بأسلوب شعبى عن أشياء يمكن لجميع الأشخاص العاديين ممن يملكون الحكمة الفطرية أن يفهموها، لكن الفلكيين يتفحصون بجهد عارم جميع الأشياء التى بوسع ذكاء العقل البشرى إدراكها». رأى أن الإنجيل لم يحو شيئا عن الفلك وأن «من يريد تعلم الفلك وغيره من الفنون العلمية عليه أن يبحث فى مكان آخر». فالعلم مفيد جداً، ولا ينبغى أن يُعوَّق «لأن بعض الموتورين اعتادوا أن يرفضوا بصلافة كل ما يجهلونه».

حاول بعض العلماء، وقد أسرتهم فرضية كوبرنيكوس، أن يطوروا أفكاره. قام تايكو براهى (١٥٤٦– ١٦٠١) الفلكى، والرياضى. والمُنجم الإمبراطورى الدنماركى فى مرصده بجزيرة هڤين بالمضيق السويدى، بتصويب بعض الأخطاء اللافتة فى جدول الحسابات الفلكية واكتشف نجما جديدا فى مجرة «ذات الكرسى Cassiopeia» لكنه رفض نظرية كوبرنيكوس واقترح نوعا من التعديل الوسطى فى نظام بطليموس: تدور الكواكب حول الشمس التى تدور ، بدورها، حول الأرض الثابتة. أما الفلكى الإنجليزى ويليام جيلبرت (١٥٤٠– ١٦٠٣) فاعتقد أنه قد تكون للأرض خاصية جذب مغناطيسى باطنية تتسبب فى دورانها اليومى حول محورها. وفى إيطاليا ترك الراهب الدومينيكانى جيوردانو برونو (١٥٤٨– ١٦٠٠) الرهبنة عام ١٥٧٦، وشن هجوماً عنيفا على أوجه قصور الفيزياء الأرسطية. كانت الديانة السرية التنسكية المصرية القديمة قد أسرت برونو، وكان مقتنعا أن التدريبات الروحية الباطنية بإمكانها أن تتيح للفيلسوف بأسلوب مباشر الحياة المقدسة التى تكمن مختفية وراء

حجاب الواقع الفيزيقى. زعم أن هذا هو المعنى الحقيقى لنظرية مركزية الشمس والذى لم يستوعبه كوبرنيكوس تماما - الذى كان مجرد موظف رياضيات يستغل عمله.

يمكن القول إن أكثر هؤلاء العلماء الرواد ذكاء كان عالم الفلك الألمانى جوهانس كبلر (١٥٧١- ١٦٣٠)، الذى كان قد تبادل الرسائل مع براهى، وساعده فى عمله، وخلفه فى منصب المنجّم الإمبراطورى. كان كبلر، مثل كوبرنيكوس مقتنعا بأن الرياضيات هى مفتاح فهم النظام الكونى، وأن مهمة العالم هى اختبار نظرياته الرياضية على أساس الملاحظة الإمبريقية الصارمة. نشر فى عام ١٦٠٩ كتابه عن الفلك، وكان أول محاولة علنية لتبرير نظرية كوبرنيكوس عن مركزية الشمس وتنقيحها. كانت تلك النظرية قد عقّدها، دونما داعٍ، إبقاء كوبرنيكوس على فكرة مدارات الكواكب الدائرية، وكان أيضاً ثمة مشاكل بارزة فى هذا الافتراض. ما الذى كان يمنع الأشياء الأرضية من الطيران مبتعدة عن الأرض فيما كان الكوكب يدور بتلك السرعة الفائقة فى الفضاء؟ وبعد محاولات مضنية استمرت عشر سنوات بحثا عن وسيلة ليؤكد بها أن الكواكب تتحرك فى دوائر كاملة، اقتنع كبلر فى النهاية بملاحظات براهى الدقيقة للتخلى عن تلك الفرضية، وأسس حساباته على الهندسة الإقليدية، وقام بصياغة أول «قوانين طبيعية» - نصوصا يمكن إثباتها عن الظواهر المحددة ويمكن تطبيقها شمولياً:

أولا: تتحرك الكواكب فى مدارات إهليجية ناقصة المقطع لا دائرية، بسرعة تختلف تناسبيا مع المسافة التى تفصل بينها وبين الشمس، ثانيا: فيما يكون الكوكب فى فلكه، يندفع عبر مساحات متساوية من الإهليج فى فترات متساوية من الزمن، ثالثا: نسبة تربيعات المُدد المدارية تساوى بالضبط نسبة

تكعيبات متوسط بعدها عن الشمس. اقترح كبلر أيضا أن الكواكب، بدلا من أن تتحرك ذاتياً، فإن ما يحركها هى قوى رياضية. اقترح، بعد أن وسّع نظرية جيلبرت عن خاصية الأرض المغناطيسية ليطبقها على جميع الأجرام السماوية، أن أفلاك الكواكب الإهليجية أوجدتها القوة المحركة للشمس ومعها مغناطيسيتها الخاصة ومغناطيسية الكواكب. من ثم، فإن الكون هو آلة ذاتية التحكم، يسير على نفس المبادئ التى تحكم الديناميات الأرضية.

وفى توصل كبلر لتلك الاستنتاجات التى مثلت علامة فاصلة، كان قد اعتمد ليس فقط على الرياضيات والملاحظة الإمبريقية بل أيضا على التكهنات الروحية التنسكية للعبادات السرية كما فعل برونو. كان هو أيضا مقتنعا أن كوبرنيكوس لم يدرك التضمينات الكاملة لنظريته، التى كان قد تعثر فيها بالصدفة «مثل رجل أعمى يستند على عصا فيما يسير». لكن كبلر اعتقد أنه بمساعدة اللاهوت سيثبت أنه ليس من قبيل الصدفة أن اتخذ الكون شكله، فالهندسة هى لغة الله، ومثل «كلمته» وُجِدت معه منذ قبل الخليقة، وهى متطابقة معه. من ثم، فدراسة الهندسة هى دراسة لله، ومن خلال دراسة القوانين الرياضية التى هى الجوهر الذى تقوم عليه الظواهر الطبيعية، فإننا نتواصل مع العقل المقدس. ونظرا لاقتناع كبلر بأن الله قد طبع صورته على النظام الكونى، كان يرى الثالوث المقدس فى كل مكان. اعتقد أن الثالوث هو «الشكل والنموذج الأول» للثلاثة أشياء الوحيدة الثابتة فى الكون، أى الشمس، والنجوم الثابتة والمسافات بين الأجرام السماوية. تدور الكواكب فى أفلاكها بسبب قوة روحية تنبثق الشمس منها بنفس الأسلوب الذى يدفع به الأب من خلال الابن الأشياء للحركة بواسطة الروح (القُدُس). لم يعمل النظام الشمسى فقط على تذكير كبلر بالثالوث بل إنه أصر على أن الثالوث، جزئياً،

كان وراء اكتشافاته. لكن الحماس الدينى لم يكن يطغى عليه بالكامل. كان يعلم أن الحقيقة اللاهوتية التى اكتشفها فى النظام الكونى كانت تعتمد على الرياضيات، والملاحظة الإمبريقية والقياسات: «وإذا لم تتطابق (الاكتشافات) مع تلك (القوانين) فلا شك أن العمل السابق كله لا يتعدى كونه وهما».

دائماً ما يفترض، اليوم، أن العلم الحديث كان يصطدم بالدين دائماً. لكن كبلر، ذلك الرياضى فذ العبقرية، يذكرنا أن العلم الحديث المبكر كان متجذرا فى الدين. لم يكن لهؤلاء العلماء الرواد أية رغبة فى التخلص من الدين. بدلا من ذلك، فقد أدت اكتشافاتهم إلى تطوير لاهوت علمانى لأنها جعلتهم يفكرون فى الله بأسلوب مختلف. كان العلم والفلسفة والدين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، ملتحمين معا. كان كبلر على قناعة أنه أثناء اكتشافاته وتفحصاته الرياضية للكون، كان «يتتبع بالعرق واللهاث آثار خطوات الخالق». كان على العلماء ترك كل شىء اعتقدوا أنهم كانوا يعرفونه جانبا ومجابهة المجهول الذى لا سبيل إلى معرفته – بنفس الأسلوب تقريبا الذى به التقى معاصرهم چون الصليبى الله الذى لا سبيل إلى معرفته، قائلاً لقرائه: «كى تصلوا إلى المعرفة التى لا تملكونها، ينبغى عليكم أن تسلكوا سبيلا لا تعرفوا فيه شيئاً». إذا لم يملك المتصوفون والعلماء الشجاعة للانتقال خارج نطاق أمن الأفكار المتوارثة المسلم بها سيقعون فى شرك المعتقدات التى لم تعد كافية أو مناسبة.

بيد أنه، فى نهاية القرن السادس عشر، هيمن نمط من الحداثة المتعصبة فى إيطاليا، موطن النهضة. كان الإصلاح الدينى البروتستانتى صادما للكنيسة الكاثوليكية وأحدث بها رضوضا. كما كان الإيطاليون قد شهدوا نهب روما من قبل قوات المرتزقة الألمان عام ١٥٢٧، وانهيار جمهورية فلورانسا

عام ١٥٣٦، وأخيرا، السيطرة الإسبانية على شبه جزيرة إيطاليا. غدت الهيئة الكنسية التراتبية الكاثوليكية عازمة بتعصب على إحكام السيطرة المطلقة على رعاياها الكاثوليك – وكان من بينهم كثيرون فى تلك الأوقات العصيبة على استعداد لمقايضة عبء الحرية بسلوى اليقين. تقلّص لاهوت توماس الإكوينى والفلسفة والعلم الأرسطيين، ليصبح نظاما دوغماتيا متشددا بدرجة غدا معها التعرف على الأصل مستحيلا، وعُمِل به أرثوذكسية كاثوليكية؛ فيما كان يُنظر بشك إلى جميع مدارس الفكر الأخرى. عام ١٥٥٩ أصدر البابا بولس الرابع أول قائمة بالكتبُ المحرّمة، وأنشأ البابا بيوس الخامس (١٥٦٦– ١٥٧٢) أول لجنة كرادلة مختصة بقائمة الكتب المحرمة من أجل الإشراف على برنامج الفاتيكان الرقابى. وكنتيجة لهذا انهالت الإدانات فجأة فى مطلع القرن السابع عشر. كان نقد نظام الكون الأرسطى قد أضحى فى منتهى الخطر. أدينت أعمال الفيلسوف الإيطالى برناردينو تليسيو (١٥٠٩– ١٥٨٨) وأعمال الراهب الدومينيكانى توماسو كامپانيلا (١٥٦٨– ١٦٣٩) لأنها كانت تعارض أرسطو، وتم سجن كامپانيلا مدة سبعة وعشرين عاما. أُجبر فرنسيسكو پاتريزى (١٥٢٩– ١٥٩٧) على اجتناب فلسفة أفلاطون التى كانت قد غدت «هدّامة» وأدين لأنه كان يقوم بتدريس لا نهائية المسافة بين /النجمية؛ تم تنفيذ حكم الإعدام فى فرانسيسكو پوتش (١٥٤٣– ١٥٩٧) لآرائه «المهرطقة» عن الخطيئة الأصلية؛ وفى عام ١٦٠٠، تم حرق جيوردانو برونو على الخازوق لنشره هرطقة سحرة ومنجمين تقول بأن للنجوم أرواحاً، وأن ثمة عدداً لا متناهيا من العوالم.

ووسط هذا المناخ السياسى الكئيب أعلن عالم النجوم الإيطالى جاليليو جاليلى (١٥٦٤– ١٦٤٢) أنه قد برهن على صواب كوبرنيكوس. وعلى عكس

كبلر وبرونو، لم يكن لجاليليو أى اهتمام بالممارسات الروحانية أو السحرية؛ وبدلا من أن ينظر للكون على أنه انعكاس مبهم للسر الإلهى، فقد وصفه بأنه آلية كونية تخضع للقوانين الرياضية. وبملاحظته تذبذبات مصباح يتأرجح فى كاتدرائية بيزا، استنبط قيمة البندول من أجل قياس مضبوط للوقت. كان قد اخترع ميزانا هيدروستاتيا، وكتب رسالة عن الجاذبية المحددة، وأثبت رياضيا أن الأجسام التى تسقط، أيا كان حجمها تهبط على الأرض بنفس السرعة. كان أحد أشهر إنجازاته هو التلسكوب الكاسر الذى أمكنه من خلاله ملاحظة وهدات (حفرات) القمر عام ١٦٠٩، والبقع الشمسية، وأطوار المريخ، وأقمار المشترى الأربعة. برهنت بقع الشمس، وسطح القمر المليء بالحفرات، على أن تلك الأجرام لم تكن كاملة وفقا لوصف أرسطو. أصبح من الواضح أن المشترى كان كوكبا متحركا تدور حوله أقمار تابعة تماثل قمرنا. انتهى جاليليو إلى أن هذا جميعه برهان ثابت على فرضية كوبرنيكوس. نشر عام ١٦١٠ «الرسول النجمى» الذى لقى استحسانا فوريا. مضى الناس فى أنحاء أوروبا يصنعون تلسكوباتهم الخاصة التى تفحصوا بها، بأنفسهم، السماوات. حينما زار جاليلو أوربا فى العالم التالى. أكد الجزويت علنا على صحة اكتشافاته، ووسط تصفيق حاد، عينه الأمير فدريكو سيشى عضوا بأكاديمية دى لتشى.

أضحت حالة جاليليو قضية شهيرة تثير اهتماما عاما، وترمز إلى ما يعتقد أنه صراع أبدى ومتأصل بين الدين والعلم. لكن، لم يكن جاليليو فى واقع الأمر ضحية للدين بذاته، بل للكنيسة الكاثوليكية بعد مؤتمر ترنت فى وقت كانت تشعر فيه أنها نوع مهدد بالانقراض. ارتكب البابا إيربان الثامن (١٥٦٨- ١٦٤٤) خطأ فاحشا حينما أخرس جاليليو، لكن جاليليو كان أيضا

قد ارتكب أخطاء. مثّل كل منهما تعصب الحداثة الذى كان قد بدأ يتجاوز الروح المنفتحة الليبرالية، الميالة إلى التشكك الصحى فى عصر النهضة.

كان جاليليو يمثل الدقة والتوجه العملى للروح الحديثة الوليدة. أصر على أنه من المستحيل فهم كلمة واحدة من «كتاب الطبيعة» دونما معرفة لغة الرياضيات. على العالِم أولا أن يقوم بعزل الظاهرة التى يلاحظها - البندول المتأرجح، أو الجسم الذى يهوى. وبعد ذلك، يقوم بترجمة المسألة إلى نظريات، بدهيات وفرضيات رياضية. وفى النهاية، ينبغى عليه اختبار استنتاجاته الرياضية كى يضمن أنها تتوافق بدقة مع الظاهرة الفيزيقية التى أثارت الدراسة والتفحص. وبدلا من أن يفقد ذاته فى نظريات روحية، على العالم التركيز على خصائص موضوع البحث الكمية التى يمكن قياسها - الحجم، الشكل، العدد، الوزن، الحركة. أما الخصائص الأخرى - اللون، الرائحة، الملمس، الطعم التى هى أول ما يلاحظه غير المتخصص - فهى لا أهمية لها لأنها مجرد انطباعات ذاتية. كان العلماء فى عصره قد بدأوا يطورون أسلوبا مختلفا تماما للنظر إلى العالم. حينما كان جاليليو ينظر إلى موضوع، كان يتخطى خصائصه الحسية - ما إن كان «أبيض أو أحمر مُرًّا أم حلوا، يُصدر صوتا أم أخرس، ذا رائحة محببة أو كريهة - وبدلا من ذلك يتفحص المبادئ الرياضية المجردة، التى تُفسّره. بإمكان العالم الاعتقاد فى شىء غير موجود فى نطاق خبرته الفعلية، بل فى شىء لا يمكن أن يتحقق فى العالم الفيزيقى، وذلك لأن حساباته الرياضية أعطته ثقة مطلقة فى وجوده. لم يعد جاليليو يكتفى بالكلام الافتراضى. فالافتراضات لا تعدو كونها ظنًّا، شئونا تتعلق بالرأى، لكن العلم ينبغى له أن يضطلع بمهمة توفير يقين لا شبهة فيه. ونظراً لاقتناعه بأن الكون ذا المركزية الشمسية هو واقع فيزيقى يمكن إثباته

إمبريقيا، فقد ألزم نفسه بالعثور على برهان لا يُدْحض، «ضرورى» أى بدهى، دامغ تدعمه أدلة فيزيقية تمت ملاحظتها بعناية. أما إذا تركت استنتاجات العالم أى مجال للشك، فقد رأى جاليليو أنها تصبح غير علمية.

لكن بالطبع، كان من المستحيل إثبات الحقائق الدينية بهذا الأسلوب. تمسك جاليليو، إلى يوم وفاته، بالعلاقة التقليدية بين الأسطورة والعقلانية، وأصر على أن نظرياته لا تناقض الدين بأى أسلوب. ليس ثمة ما تقوله الميكانيكا (علم الحركة) عن اللاهوت. فهما مبحثان متمايزان تماما، ولكل منهما مجال اختصاصه. وفيما رأى علماء حداثيون مبكرون ضرورة استدعاء الله وقدرته كتفسير لنظرياتهم، لكن ليس جاليليو. فى خطابه الشهير إلى الجراندوقة كريستينا الذى طرح فيه آراءه عن العلاقة بين العلم والدين، صادق مُخلصا على مبدأ أوغسطين عن تكييف تفسير النص الدينى بحيث يتوافق مع العلم، رأى أن بؤرة البحث العلمى هى العالم المادى، وبؤرة اللاهوت هى الله. ينبغى أن يظل المبحثان منفصلين ولا يجوز لأى منهما أن ينتهك مجال الآخر، فالله هو خالق «كتاب الطبيعة» والإنجيل، و«لا يمكن للحقيقتين أن تناقضا بعضهما». فأحكام العلماء على الدين ومزاعم المتدينين بأن الكتاب المقدس يحوى معلومات لا تخطئ عن البنى الخفية للطبيعة لا ينجم عنها سوى أسوأ أنواع التشويش. كان جاليليو يدرك ذلك تماما: كان يقصر تعليقاته على «الاستنتاجات الفيزيقية المؤسسة على التجربة الحسية والملاحظات الدقيقة جداً». لكنه رأى أنه فى الحالات التى لا نصل فيها إلى برهان قاطع ينبغى أن نُسلِّم بمرجعية الإنجيل: «ليس لدى شك البتة، فى أنه حيث لا يستطيع العقل البشرى الوصول، وحيث لا يستطيع المرء تبعا لذلك أن يأتى بعلم، بل فقط برأى، وإيمان، فإن من الملائم دينيا، التطابق المطلق مع

المعنى الحرفى للنص المقدس»

يبدو أن جاليليو لم يكن قد أدرك أن المناخ السياسى قد تغير. لم يعد الڤاتيكان يعتبر اللاهوت علما ظنيا (حدسيا) بل مضى، منهجيا، يقلص تعاليم أرسطو وتوماس الإكوينى إلى مجموعة جامدة صارمة من الآراء صيغت بأسلوب ينهى كل نقاش ويصل باليقين إلى أقصى حد. فى عام ١٦٠٥، أصبح الكاردينال الجزويتى روبرت بلارمين (١٥٤٢- ١٦٢١)، الذى كان يجسد التوجه الجديد، لاهوتيا بابويا. كانت مهمة اللاهوت، كما رآها بلارمين، هى ترتيب المبادئ والتعاليم على شكل أنظمة محكمة يمكن بها مواجهة أعداء الكنيسة بفاعلية. كان إعدام برونو قد جعل من الواضح البشع أن المسئولين البابويين كانوا على استعداد لفرض الأرثوذكسية الجديدة مستخدمين نفس الأساليب القمعية التى كانت تستخدمها أى من الملكيات الحديثة المبكرة.

لم يكن جاليليو صوتاً وحيداً؛ كان ينتمى إلى «عائلة» من الكاثوليك التقدميين الذين كانوا يدعمون آراءه الكوپرنيكية، لكنهم كانوا ينصحونه دوما ألا يتورط فى منازعات مع سلطات الڤاتيكان. بيد أنه و على الرغم من قناعته أن اللاهوت والعلم مبحثان منفصلان تماما، إلا أنه ظل عازما بعناد غير مفهوم على التوفيق بين اكتشافاته ونصوص الكتاب المقدس. أورد فى «خطابات عن البقع الشمسية» (١٦١٢) مجتزآت من الإنجيل لإثبات أن نظريته كانت «متوافقة تماما مع الكتاب المقدس»، وتملكه بالغ الغضب حينما أصر الرقباء البابويون على وجوب محو تلك الاستشهادات. كان بإمكان جاليليو، حينما يعارضه أحد، أن يصبح مُزدرِيا فاقد الصبر، يزعم القوامة الأخلاقية كأى كاردينال بابوى. لكن، لِم ضمّن تلك الاستشهادات فى المقام الأول، مع الأخذ فى الاعتبار آراءه التى كان قد نص عليها بوضوح؟ فقد كان

كوبرنيكوس قد تقبل التفكير الافتراضى، وسيظل هذا النوع من التفكير جوهريا لعملية البحث العلمى. هل كان إصرار جاليليو على اليقين المطلق دلالة أخرى على دوغماتية العصر؟

عام ١٦١٥، وصل الراهب الكرملى المثقف پاولو فوسكارينى إلى روما ليدافع بهدوء وفاعلية عن نظرية مركزية الشمس فى الكون. قال فوسكارينى إن الله كشف فى الإنجيل فقط عن تلك الحقائق التى لا يمكن للعقل الطبيعى اكتشافها وترك الباقى للبشر. حينما قرأ بلارمين بحثه، أجاب قائلاً إنه وبقدر علمه، لا يوجد برهان قاطع على نظرية كوبرنيكوس، ولاختلف الوضع إذا وُجد مثل هذا البرهان: فى تلك الحالة، «سنولى عناية فائقة لتفسير آيات الإنجيل التى تبدو مناقضة لتلك النظرية.. لكن، ليس باستطاعتى الاعتقاد فى وجود مثل هذا الدليل حتى يريه إياى أحدهم». وسرعان ما أوضح جاليليو أن مجمع ترنت تمسك بمرجعية الإنجيل فى شئون العقيدة والأخلاقيات فقط، وأن نظرية مركزية الشمس لا تدخل فى نطاق أى من هذين المصنفين. لكن من الواضح أنه لم يخطر له أنه ليس من الحكمة فى شىء تصويب بلارمين، المتحدث الرئيسى باسم الكاثوليكية الإصلاحية، حول قرارات مجمع ترنت. ثم، زاد الطين بلة. بأن بالغ فى صدقية موقفه بأن قال إن تجاربه قد أتت بالبرهان القاطع الذى أعلن بلارمين أنه غير موجود. لكن، لم يكن الوضع هكذا: كانت ملاحظات جاليليو عن البقع الشمسية ومراحل المريخ، وعن حركات المد والجزر، تنضوى تحت الاحتمالات الافتراضية لكنها لم تكن قاطعة. وعلى كلا الجانبين، كان ثمة صدام بين إصرار يقينى فى غير موضعه.

كان جاليليو محقا حينما رأى أن المقاطع الشعرية بالإنجيل لا يجوز قراءتها بصفتها ملاحظات علمية قاطعة؛ وكان رأى جاليليو هذا ممارسة

تأويلية معيارية فى الغرب منذ عصر القديس أوغسطين، وبإغفاله هذا، ارتكب بلارمين خطأ. لكن جاليليو لم يستطع الوفاء بمعاييره الخاصة الرفيعة للبرهان العلمى، كما أنه لم يقدر أهمية التفكير الافتراضى والمحتمل فى مجال العلم حق قدره. فقد انتهك مبادئه حينما خلط بين العلم والدين، ودخل حقل ألغام التأويل الإنجيلى المليء بالأخطار. ولو أنه قدم رأيه بصفته نظرية محتملة، كما كانت فى واقع الأمر، لظل فى سلام مع الكنيسة. لكنه بدلا من ذلك أصر على أنه يملك برهانا لم يكن قد توصل إليه. فى عام ١٦١٦، تم وضع كتاب كوبرنيكوس De revolutionibus ورسالة فوسكارينى على قائمة الكتابات المحرمة للڤاتيكان لم يكن جاليليو ذاته موضع تهديد، بل إن بلارمين منحه شهادة تنص على أنه لم يُطلَب منه العدول عن أى من نظرياته.

لكن فى عام ١٦٢٣، تضمنت قوائم المحرمات اسم جاليليو مرة أخرى. كان صديقه مافيو باربارينى قد أصبح إيربان الثامن بابا الڤاتيكان. حينما التقيا فى روما أقام إيربان الولائم لجاليليو ووافق على أنه بإمكانه أن يكتب ما يحلو له عن نظرية مركزية الشمس طالما أنه يعرض نظرياته بصفتها افتراضية كالمعتاد. عاد جاليليو إلى فلورانس ليعمل على كتابه «حوارات عن نظامىْ العالم». لكن، فى أعقاب هذه البداية الواعدة، تورط اثنان من رعاة جاليليو فى مؤامرات سياسية إسبانية ومَثَلا أمام المحكمة البابوية ولحق بهما العار، ولحق جاليليو الأذى لارتباطه بهما. ولجعل الأمور أكثر سوءا، أضاف فقرة ختامية إلى «حوارات عن نظامىْ..». رأى «سيمبليسيو Simplicio (وتعنى الأبله) تلك الشخصية فى «الحوارات» التى تمثل الأرثوذكسية الأرسطية والتى اتصف سلوكها طوال الوقت بالسذاجة، أن النظرية الكوبرنيكية «ليست صحيحة أو قاطعة» وأنه سيكون من «فرط الصفاقة» أنَ يقْصر أى شخص

«السلطة والحكمة الإلهيتين ويطبقهما علي أحد أوهامه الخاصة». كانت تلك الكلمات اجتزاء مباشراً من ملاحظات منشورة للبابا إيربان نفسه، الذى لم يكن ليسره أن يراها تخرج من شفتى سيمبليسيو الذى كان اسمه، فى حد ذاته، إهانة. فى ١٢ إبريل ١٦٣٣، استُدعى جاليليو للمثول أمام المكتب المقدس (الهيئة الكهنوتية العليا) وصدر الحكم بإدانته بالعصيان. وفى ٢٢ يونيو، أجبر على العدول عما كتبه وهو جاثٍ على ركبتيه، ثم عاد إلى فلورانس حيث حُدِّدت إقامته بضيعته الريفية.

حينما عرض كوبرنيكوس أفكاره بالڤاتيكان صادق البابا عليها. ثم بعد تسعين عاماً، وُضع «De Revolutionibus» على قائمة المحرمات. فى عام ١٦٠٥ أعلن فرانسيس بيكون (١٥٦١– ١٦٢٦) مستشار چيمس الأول ملك إنجلترا أنه لا يمكن أن يكون ثمة صراع بين العلم والدين. لكن هذا الانفتاح كان فى سبيله للتراجع ليحل محله الدوغماتية والاتهامات. وسرعان لم يعد ثمة مكان لفكر مونتنييه التشككى أو للأدرية النفسية لمسرحيات شكسبير. وبمطلع القرن السابع عشر، كان مفهوم الحقيقة قد بدأ يتغير. لم يكن لتوماس الإكوينى أن يتعرف على لاهوته لو قُدِر له أن يراه فى قناعه الجديد بعد مجمع ترنت، كان قد حل محل نشوته الصامتة المرافقة لحالة عدم المعرفة شهوة متشددة لليقين وتعصب دوغماتى قاس. تراجعت روحانية الصمت أمام الجدل الطنان؛ حل محل رفض التعريف (وهو لفظ يعنى حرفيا «وضع حدود لشىء ما») تعريفات قاطعة للمبادئ والحقائق التى هى أقدس من أن يُنطق بها ولا سبيل إلى معرفتها. بدأت عملية مماهاة الإيمان بـ «الاعتقاد» فى آراء هى من صنع البشر– وكان لهذا أن يؤدى، فى نهاية المطاف، إلى صعوبة الحفاظ على الإيمان.

لكن لم يكن أول الملحدين الحداثيين مسيحيين سببت لهم قناعات رجال الدين البشعة الاغتراب عن عقيدتهم، بل يهودا كانوا يعيشون فى أكثر بلدان أوروبا ليبرالية. تمدنا تجربتهم بالكثير عن محنتنا الدينية الراهنة. فى مطلع القرن السابع عشر، وفيما كانت بقية أوروبا تعانى من ركود اقتصادى حاد، كان الهولنديون يتمتعون بعصر ذهبى من الازدهار والتوسع. لم يشاركوا فى الدوغماتية الطائفية الجديدة. كان قد سُمح لبعض اليهود الخنزيريين Marrano بمغادرة البرتغال قُرب نهاية القرن السادس عشر حيث هاجروا إلى البندقية، همبورج، لندن وفوق كل تلك الأماكن، أمستردام – التى أصبحت بالنسبة لهم أورشليم الجديدة. لم تحدد إقامة اليهود فى هولندا داخل جيتوهات، كشأن نظرائهم فى بقية أوربا؛ أصبحوا هناك رجال أعمال ناجحين واختلطوا بحرية مع الأغيار. كان اليهود، لدى وصولهم إلى أمستردام، يتوقون لفرصة لممارسة عقيدتهم باكتمال.

لكنهم وجدوا الحياة الدينية التقليدية مُربكة. كان يهود شبه جزيرة أيبريا قد عاشوا دونما حياة دينية جماعية، ولم يكن – لديهم أية خبرة فى ممارسة الطقوس الدينية والالتزام بها. خاض الحاخامات الهولنديون معركة صعبة فى إرشادهم للعودة إلى القطيع، وأخذوا مشاكلهم فى الاعتبار، لكن ليس على حساب الموروث الدينى، ومن دواعى فخرهم أن استطاع غالبية اليهود الخنزيريين أن يحققوا تلك النقلة. لكن، فى البداية، ماثلت ردود أفعالهم ما نراه اليوم من الأشخاص الذين يجدون «معتقدات» الدين اعتباطية لا يمكن تصديقها وذلك لأنهم لم يشاركوا باكتمال فى طقوسها التحويلية. ولابد وأن قوانين الأكل والطهارة قد بدت بربرية لا معنى لها لمثقفى اليهود الخنزيريين بهولندا الذين وجدوا من الصعوبة بمكان تقبل تفسيرات الحاخامات لأنهم

كانوا قد اعتادوا التفكير العقلانى المُستقل. ووفقا لإسحق أوربيو دوكاسترو أستاذ الفلسفة الذى كان قد عاش فى عزلة لسنوات فى إيبريا كمنظِّر يهودى فقد أصبح بعض هؤلاء «ملحدين متطرفين» يملؤهم الكبر، والتيه، والصلافة ورأى أنهم يحبون استعراض علمهم بأن يناقضوا ما لا يفهمونه، ويشعروا أن خبرتهم فى العلوم الحديثة تجعل مكانتهم أرفع ممن هم متفقهون حقا، فى القوانين المقدسة.

وجدت أقلية ضئيلة من هؤلاء اليهود النقلة إلى التزام تام بالشعائر والطقوس مستحيلة. كانت حالة أوريل دا كوستا هى الأكثر مأساوية. كان كوستا قد وجد المسيحية البرتغالية قامعة، قاسية، تتكون من أحكام وتعاليم لا صلة لها بالكتب المقدسة. كان قد شكل فكرته الخاصة عن الديانة اليهودية من خلال قراءته للعهد القديم وحينما وصل إلى أمستردام أصابته صدمة لاكتشافه أن اليهودية المعاصرة بعيدة كل البعد عن الكتاب المقدس تماما كالكاثوليكية. انتابه الغضب ونشر بحثا هاجم فيه التوراة وأعلن أنه لا يؤمن سوى بالعقل البشرى وقوانين الطبيعة. تسبب هذا فى حالة من الاهتياج بدرجة أُجبر معها الحاخامات على تكفيره وطرده من الكنيس اليهودى. آنذاك، لم يكن فى أوروبا فكرة عن اليهود العلمانيين، وكمطرود ومكفَّر، تجنبه اليهود والمسيحيون معا؛ وكان الأطفال يتبعونه فى الشوارع ويهزأون به. وفى يأسه، عاد إلى المعبد، لكنه لم يستطع التكيف مع عقيدة غير مفهومة له. وفى عام ١٦٤٠ انتحر دا كوستا. فى عام ١٦٥٥ وصل خوان دا برانو الذى كان عضوا ملتزما فى الجماعات اليهودية السرية بالبرتغال لعشرين عاما، وصل إلى أمستردام. وجد هو أيضا أنه بدون التدريبات الروحية فقد فقدت أفكار الدين التقليدية جوهرها استسلمت لربوبية (الديانة الطبيعية لا المنزلة)

اليهودية الخنزيرية حيث كان يُنظر له على أنه متطابق مع قوانين الطبيعة. أيضا، أصابته هو الآخر الصدمة لدى رؤيته، لأول مرة جالية يهودية تعمل فى مختلف مناحى الحياة على وجه كامل وارتفع صوته بالشكوى. تساءل: لِمَ يعتقد اليهود أنهم شعب الله المختار؟ أليس من المهين تخيل أن «العلة الأولى» هى «شخص»؟ وبعد عامين من وصوله، تم طرد برادو من المعبد وحرمانه، لكنه أصبح أكثر تطرفا فى آرائه، وقال إن كل الدين هراء، وإن العقل البشرى، لا «التنزيل» هو وحده الذى يقرر الحقيقة. وليس لدينا أية فكرة عما انتهى أمره إليه.

توضح قصتا برادو وداكوستا البائستان أن قصص الأديان المنزلة وأساطيرها لا يمكن الإبقاء عليها ودعمها من دون تدريبات روحية. لا يمكن للعقل وحده سوى أن ينتج ربوبية «ديانات قوانين الطبيعة» هشة يسهل التخلى عنها لأن إلهها قصى، مجرد، ولا يُصدّق فى نهاية المطاف. غير أنه، وفى نفس الوقت الذى كانت فيه الجالية اليهودية بأمستردام تتعرض للتشرذم نتيجة تلك الصراعات كان مسيحيو أوروبا قد بدأوا فى تطوير نسختهم الخاصة من ربوبية الطبيعة؛ ومثل برادو، كان لهم أن ينظروا إلى العقلانية العلمية بصفتها الطريق الوحيد الموصل للحقيقة، وسيمضون يسعون إلى يقين عقلانى كان الفلاسفة اليهود والمسيحيون والمسلمون قد رأوه مستحيلا فى الأمور المتعلقة بالإيمان.